الضحية

﴿ لسليمة مظراج ﴾

*****

في منتصف ليلة من ليالي الصيف الحارة ، بينما الطبيعة هادئة مستكنة تسمع شكاوى المتظلمين كانت مريم جالسة في النافذة تطل منها آناً لتقاسم الطبيعة سكونها الرهيب ، وآناً ترفع بصرها الى السماء مستنجدة بالعدالة متوسلة ان تعبر عنها الكاس التي اوشكت ان تجرعها اياها الشرائع البشرية القاسية في الغد .

قبيل الفجر ضاقت مريم ذرعاً واضنكها الجلوس ومراقبة اشباح الدجى الهائلة فنهضت ومشت ببطء الى الحديقة المحيطة بالمنزل وهناك جلست في وسطها عَلَى مقعد خشبي تناجي نفسها ودموع الحزن تتساقط عَلَى وجنتيها كقطرات الندى المتساقطة عَلَى الازهار .

في الغد يرسم ابي عَلَى جبيني آية الموت ، والكنيسة آية الخضوع ، والزوج آية العبودية .

في الغد تدفعني الشريعة الى قبضة رجل تأباه روحي شريكاً لها

في الغد تقتلع يد الجور من قلبي جرثومة الحياة ، فهل من سبيل الى النجاة ايتها السماء ؟ وهل من نصير للضعيف المظلوم ؟

حملت امواج النسيم اللطيفة انّات قلبها المتوجع وصدى صوتها المتقطع

الى آذان الام الراقدة ، فنهضت من مضجعها وسارعت الى جهة الصوت ، الى الحديقة حيث كانت مريم جالسة على المقعد مسندة رأسها الى يدها ، شاحبة اللون ، مطبقة المرجفان ، يتصاعد من شفتيها المرتعشتين انين الروح المعذبة

فلما رأتها الام على هذه الحالة اسرعت اليها فضمتها الى صدرها وقبلتها قبلات حارة أودعت فيها كل ما في قلبها من الشفقة والعطف والحنان والمواساة ، وقالت

— ما جاء بك الى هنا في مثل هذه الساعة ، يا حبيبتي !

ففتحت مريم عينيها الدامعتين واجابت بصوت متقطع من الاسى

— اماه ، انت شريكتي الوحيدة في مصابي ، ولكنك ضعيفة مثلي وقاصرة عن مساعدتي . البارحة جاء ابي وقال لي « مريم ، غداً سيعقد اكليل زواجك ، فاياك ان تظهري عدم رضاك وقلة حيائك امام الناس ! » فتضرعت اليه والرعب ملء قلبي ، ابي رحماك ! اشفق على صباي ، واعدل عن هذا الحكم الجائر ! وركضت نحوه فطوقت عنقه بيدي وقلت له بكل ما في روحي من اليأس والانكسار « ان نفسي تشمئز من ذلك الرجل ، وقلبي ينقبض عند ذكره . كرهته مذ رأيته ، فلا طاقة لي على المعيشة معه ، فبربك لا تقسُ ، وارحمني واشفق على صباي . انا لا ازال في ربيع الحياة ، فلماذا تريد ان تدفني حية بين ذراعي من تأباه نفسي ؟ وكيف تجعلني رفيقة لمن هو اكبر مني بثلاثة وعشرين عاماً ؟ »

ولكن الاسترحام لم يجدني نفعاً ، بل أوغر صدره عليَّ ، وأورى زناد

قسوته ، فامسك بيدي الضعيفتين ورمى بي الى الارض بكل ما له من القوة ، ومضى وهو يشتم ويصخب . فظللت مدة مضعضعة الحواس خامدة الذهن . ثم لاح لي خاطر فيه بعض الامل فلبست ثيابي وهرعت الى الكاهن لاسأله الوساطة لدى والدي . الا اني لم اكد اشكو اليه بعض امري حتى ابتسم ابتسامة اقشعر لها جسدي وقال « سكني روعك يا بنية ، فاعلمي ان اباك يريد خيرك . انك ابنة عاقلة ، يا مريم ، فلا يليق بك ان تخالفي ارادة والدك . انظري يا بنتي الى اصبع الله الممدودة تشير الى الآية « ايها الابناء ، اطيعوا والديكم . » فتركته واليأس ملء قلبي ولما ابعدت قليلاً التفت فاذا بخطيبي خارج من عنده وعلى فمه ابتسامة شيطانية وهو يكاد يلتهمني ببصره ، فادركت اذ ذاك ان الاصبع المشيرة الى الآية لم تكن اصبع الله بل اصبع المال . وعلمت ان لا مفر لي من القضاء ولا مهرب من الشرك . فسلمت امري للعناية وقضيت ليالي اراقب النجوم حتى طلع الفجر فخرجت الى حضن الطبيعة اشكو اليها هول ما يقترفه الرجل العاتي ضد المرأة الضعيفة . جئت اشكو الى القمر ما يأتيه الانسان غير هيّاب في ضوء الشمس . جئت ابث شكواي الى الطبيعة لتحملها امواج الاثير الى آذان العدالة المتغافلة عن آثام البشر . اتيت لارد التراب على احلام الصبا الذهبية واودع اشباح السعادة التي كانت ترفرف حول نفسي قبل ان تحرمني الشرائع الانسانية حقوق الانسان . جئت لاعانق ازهاري واودع حديقتي الجميلة واسقي ارضها دموع حزني . جئت لاستنشق نسيم الصبح الاخير من ربيع الحياة وادفن قلبي بين ازهاري ، ثم اسلم جسدي

للقضاء ولم تنته مريم من كلامها حتى وهت قواها ولم تعد تقوى عَلَى الكلام وعمَّ السكون ولم يبقَ سوى صدى زفرات فتاة تندب حظها وامٍ حنون تبكي لبكاء ابنتها

طلعت الشمس ودقت اجراس الكنائس تدعو الناس الى الصلاة فنهضت الام وقالت لمريم

— يا بنتي ، دعي ما انتِ عليه الان فقد قربت الساعة ، وعما قليل يأتي المدعوون لمشاركتنا بافراح العرس ، فاذهبي الى غرفتك وسلمي امركِ للعناية

ارتفعت الشمس حتى بلغت أعلى القبة الزرقاء تعلن انتصاف النهار ، فلم تبقَ سوى دقائق قليلة لميعاد الاكليل .

غصَّ منزل آل العروس بجماهير الناس وارتفعت الاصوات منشدة اغاني الفرح واهازيج الطرب ، والعروس في غرفتها تقاسي مرارة اليأس

وحان وقت الاكليل ، فسيقت مريم الى الكنيسة تتكئ عَلَى ذراع امها والجمع وراءها في هرج ومرج .

هنالك في وسط الكنيسة عند باب الهيكل امام المذبح وصور الملائكة والقديسين بقعة من الارض اشبه بساحة الاعدام منها بالمصلى . بقعة طالما سيقت اليها الضحية بعد الاخرى في بلاد تقدس العادات والشرائع الفاسدة قبل حرية الروح .

هناك وقف العريس الكهل ينتظر بفارغ الصبر حينونة الوقت الذي به تدفع الشريعة اليها فتاة عذراء باكية فتصبح أمة له بلا اعتراض

علت اصوات المرنمين ثم تبعها صوت الكاهن داوياً « بالمجد والكرامة كللهما » . وتلاه جوق المرنمين مردداً بصوت قاصف كالصدى الرهيب « بالمجد والكرامة كللهما » فكأنهم كانوا يحاولون ان يطمسوا بانغامهم اصوات عاصفة الشقاء التي احتدمت في قلب الفتاة .

. . . .

مضى عام عَلَى زواج مريم قاست فيه من انواع الاضطهاد وضروب الاحتمال ما اضنى جسمها النحيف ، فباتت واشباح التعاسة مرسومة عَلَى محياها الجميل ، ولكن عذابها لم يطل .

بعد مضي عام عَلَى زواجها ، في مثل اليوم الذي رفع فيه الكاهن اكليل الزواج عَلَى رأسها كانت مريم تتقلب عَلَى فراش الولادة وملاك الموت ناشر فوقها اجنحته يقتبل النفس الاخير

مالت الشمس الى المغيب ولكنها لم تطبق عينها قبل ان شاهدت مشهداً محزناً من مشاهد الحياة الشرقية وجريمة من جرائم بني الانسان — فتاة في السادسة عشرة من عمرها قد فارقت الحياة ولم تذق من الحياة سوى المرارة والشقاء ، وطفلة ساعة لم تكد تفتح عينيها وتقتبل النور حتى اغمضتهما الى الابد — أماً عروس عام تضم ملاكاً صغيراً ورهبة الموت منتشرة عَلَى وجهيهما

شاع خبر موت مريم فتقاطر الناس زرافات ليشاركوا الاهل باحزان الموت كما شاركوهم بافراح العرس . فوضعت مريم وطفلتها في تابوت واحد وهناك في منتصف الكنيسة عَلَى باب الهيكل امام المذبح وصور جميع

القديسين أركز تابوت عروس الموت ووقف حوله عدد من المؤمنين يحيطون بالكاهن الذي بارك اكليل زواجها وقد رفع يده ليهبها بصلواته الراحة الابدية

سار الجمع من الكنيسة الى المقبرة . وهنالك في حفرة أعدت لاخفاء جريمة اشترك فيها الاب والكاهن والزوج دفنت الجثة ، فذر فوقها الكاهن حفنة من التراب وهو يقول بصوت جهوري «من التراب والى التراب تعودين»

وعاد الناس كل الى بيته ما عدا شاباً نطيف المنظر نحيف البنية ترقرقت في عينيه دموع اليأس وتجسمت في وجهه امارات الحزن والالم . ركع هذا لما خلت المقبرة عند القبر الجديد فوق الحفرة التي ضمت في جوفها جثة الضحية وأخذ يسقي ترابها بدموعه . ثم تناول زهرة وغرسها على القبر وهو يقول

— وداعاً يا حبيبتي الراقدة ، وداعاً يا زهرة قطفتها يد الظلم والجهل ، وروضة جميلة ديست بايدي العوائد الجائرة . وداعاً يا اخت روحي . كنت شعلة ذكية فاطفأها ظلم الناس ، ولكنك ستبقين الى الابد تشتعلين في صدري